مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 22 العدد01 2026/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

خطاب الكراهية في الخُطَب المسجديَّة

(قراءة في الخطاب السَّلفي المتشدِّد) .

Hate speech in mosque sermons
(Reading in the Salafi Hardline Discourse)

محمَّد الحبيب منَّادي [*]

المركز الجامعي آفلو

m.menadi@cu-aflou.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/24 **تاريخ القبول: 2025/10/20**

ملخص:

تُشكِّل الخُطَب المسجديَّة، وخُطَب الجمعة خاصَّةً وسيلةَ اتِّصالٍ جماهيريٍّ فعَّال، إذ تَصِل إلى مختلف شرائح المجتمع، ويستمدُّ الخطاب فيها سُلطته من السُّلطة الدِّينيَّة للمسجد وعموم الخطاب الدِّيني، وهي سلاح ذو حدَّين، يمكن أن تنشُر خطاب الكراهيَّة والطَّائفيَّة والتَّطرُّف، ويمكن أن تكون وسيلةً عظيمة لمحاربة كلِّ أشكال التَّطرُّف والكراهية. وقد ازدادت أهميَّتها بعد أحداث ثورات الرَّبيع العربي، وعرفت كيف تستقطب الجماهير وتوجِّهها باعتمادها نُقطة تجمُّعٍ وانطلاق للحراك الذي عرفته البلاد . وازدادت أهميَّتها مع ازدياد توظيف خطاب التَّطرُّف الدِّيني والفكري والسِّياسي لخدمة الأيديولوجيا ... ومن واقع هذه الأهميَّة الكبيرة للخطاب المسجدي وخُطب الجمعة يسعى هذا البحث للإجابة عن الإشكالات الآتية: كيف يسهم الخطاب المسجدي في تنمية خطاب الكراهية والدَّعوة للتَّطرُّف والطَّائفيَّة ؟ ما هي الأصول الدِّينيَّة لـ " للخطاب السَّلفي المتشدِّد " ؟ وكيف يمكن مواجهته ؟ وما هي آليَّات توظيف المساجد في إشاعة خطاب السِّلم ونبذ العنف والكراهية ؟ مع الدَّعوة إلى نبذ العنف والكراهية في أوساط الشَّباب، وبحثاً عن آليَّات تفعيل الخطاب المسجدي لمكافحة العنف والكراهية .

الكلمات المفتاحيَّة : الخطاب الدِّيني، السِّلم، العنف، الكراهيَّة، السَّلفيَّة .

Abstract:

Mosque sermons and Friday sermons, in particular, are an effective means of mass communication,because reaching different segments of society,The discourse derives its authority from the religious authority of the mosque and the whole religious

---

[*] المؤلف المرسل: محمَّد الحبيب منَّادي، الايميل: m.menadi@cu-aflou.edu.dz

discourse,It is a double-edged sword,can spread hate speech, sectarianism and extremism,It can be a great way to combat all forms of extremism and hatred .In view of the great importance of the mosque discourse and Friday sermons, this research seeks to answer the following problems :How does the mosque's discourse contribute to the development of hate speech and advocacy of extremism and sectarianism ?What are the religious origins of the Salafi hard-line discourse? How can it be addressed? What are the mechanisms of employing mosques in spreading the discourse of peace and renouncing violence and hatred?

Key words: religious discourse, peace, violence, hatred, salafism.

1. مقدِّمة :

يُعرِّف " الزَّركشي " المسجد بأنَّه « لغةً اسمٌ لمكان السُّجود .. ولمَّا كان السُّجود أشرفَ أفعالِ الصَّلاة، لقرب العبد من ربِّه، اشتُقَّ اسم المكان منه فقيل : مسجد.. ثمَّ إنَّ العرف خصَّص المسجد بالمكان المهيَّأ للصَّلوات الخمس »[الزَّركشي،[1999 م]، ص : 28 – 29]. ويتجمَّع ملايين المسلمين في أنحاء العالم لأداء الصَّلوات الخمس والاستماع للدُّروس الدِّينيَّة في المناسبات المختلفة، كما يتجمَّعون كلَّ جُمعة لاستماع الخطب الجُمَعيَّة التي تتعدَّد مواضيعها بتعدُّد المذاهب الإسلاميَّة والثَّقافيَّة والمجتمعيَّة ، وهو ما يخلق تنوُّعاً داخل النَّسيج الإسلامي الواحد يصلُ أحياناً إلى حدَّ التَّناحُر المذهبي ويتَّخذ شكل الاختلاف الطَّائفي ، وتزداد حدَّته باختلاف الفتاوى وأصولها ، وفي الوقت الذي كان يُفترض فيه أن يخلق هذا تنوُّعَ اختلافٍ وتكامل ، أفرز تنوُّع فُرقةٍ وتضاد ، شاعت بسببه "خطابات الكراهية" بين المسلمين أنفسهم ، واستُغلَّ فيها منبر رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وسُلطة المكان الدِّينيَّة ليؤصَّل لهذه الخطابات ، بفتاوى ونُصوص ساهم في انتشارها دوغمائيَّة الأتباع وتعصُّبهم ، وانتشار وسائل التَّواصُل الحديث وتنوُّعها [ويعود أصل كلمة " دوغمائيَّة " إلى اليونانيَّة بمعنى " الرَّأي الأوحد " ، وهي تشكِّل حالة من الجمود الفكري ، يتعصَّب فيها الشَّخص لرأيه ومعتقده وأفكاره الخاصَّة ، ويزعم امتلاك " الحقيقة المطلقة " ولا يرضى الاطِّلاع على

غيره من الأفكار المخالفة ، ويرى خطأها ، حتَّى مع وجود براهين لخطأ فكره أو معتقده ، ويتَّخذ موقفاً جازماً من معادات الأفكار المخالفة ولذا تُسمَّى أيضاً بـ " الجزميَّة "].

وقد ساهم " الخطاب السَّلفي المتشدِّد " في إشاعة " خطاب الكراهية " ، بسعيه لاستقطاب الشَّباب في المساجد واحتواء الخطاب المسجدي ، والمواجهة الدَّائمة مع المخالفين ، متحصِّنين ببعض الآراء المتشدِّدة لـ "ابن تيمية " – رحمه الله – في مواجهة من يُخالفهم الرَّأي أو التَّوجُّه ، ممَّا خلق صُعوبةَ التَّمييز عند الكثير من الشَّباب بين " خطاب الكراهية " و " حريَّة التَّعبير عن الرَّأي " .

وقد واجه تعريف " خطاب الكراهيَّة " إشكاليَّةً كبيرة بسبب تقاطعه مع " حريَّة التَّعبير " ، ممَّا خلق صُعوبةً أكبر في وضع الآليَّات التي تمنع انتشار أشكال هذا الخطاب بين شرائح الشَّباب ، وقد سعت مختلف الدُّول لحظر كلِّ أشكال " خطاب الكراهية " بازدياد أشكال التَّطرُّف ووسائله ، وهو ما أدَّى إلى التَّضييق على الكثير من الحرّيَّات و« في ظلِّ تنامي ظاهرة تقييد حريَّة التَّعبير باسم تجريم ازدراء الأديان ، نظَّم مكتب المفوَّض السَّامي لحقوق الإنسان عدداً من ورش العمل خلال عام 2011 م في أوربا وآسيا وأفريقيا والأمريكيَّتين . وتمخَّضت النِّقاشات عن إطلاق خطَّة عمل الرِّباط في جنيف في فبراير 2013 م، وتعتبر الخطَّة بمثابة خلاصة نقاشات خبراء في مجال حقوق الإنسان الذين شاركوا في ورش العمل »
[مجموعة من المؤلِّفين : [2014 م] ، هل تنجح خطَّة عمل الرِّباط في مكافحة خطاب الكراهية وحماية حريَّة التَّعبير ؟، ص : 05] .

وعلى ضوء هذا كلِّه كانت إشكاليَّات البحث الرَّئيسيَّة هي :

- كيف يسهم الخطاب المسجدي في تنمية خطاب الكراهية والدَّعوة للتَّطرُّف والطَّائفيَّة ؟
- ما هي الأصول الدِّينيَّة لـ " للخطاب السَّلفي المتشدِّد " ؟ وكيف يمكن مواجهته ؟
- وما هي آليَّات توظيف المساجد في إشاعة خطاب السِّلم ونبذ العنف والكراهية ؟

وللإجابة عن إشكالات البحث قسَّمناه إلى قسمين : القسم الأوَّل سعينا فيه لبيان إشكالات ضبط مصطلح " خطاب الكراهية " ، وبيان أسبابه وانتشاره بين الشَّباب وخصَّصنا له القسم الأكبر من البحث لأنَّ التَّشخيص الجيِّد للدَّاء يؤدِّي إلى سهولة العلاج المناسب له بعد ذلك ، مع عرض نماذج تُبيِّن خُطورة التَّأصيل لخطاب الكراهية في " الفكر السَّلفي " الذي يقوم على نصوص " ابن تيمية " وفتاواه بإخراجها

عن سياقاتها التَّاريخيَّة وسوء توظيفها الرَّاهن . والقسم الثَّاني خصَّصناه لبيان آليَّات تجاوز لخطاب الكراهيَّة، ومواجهة المدِّ السَّلفي المتطرِّف ، على سبيل الإلماعات لما تمَّ تشخيصُه من الأدواء ، إذ يكفي أن نُشير للدَّاء فيتمَّ تجنُّبه .

2 . ضبط المصطلح :

تأتي ضرورة تحديد مصطلح " خطاب الكراهيَّة " لتقاطعه مع " حريَّة التَّعبير " ، ويبقى علينا أن نعرف كيف نمنع " خطاب الكراهيَّة " دون أن نمنع " حريَّة التَّعبير"؟ فما يزال المشرِّعون يجدون صعوبةً كبيرةً في ضبط مصطلح " خطاب الكراهية " وتحديد مجالاته ، وتتجلَّى هذه الصُّعوبة في أنَّ " خطاب الكراهية " يقع ضمن مجال حريَّة التَّعبير عن الرَّأي الذي تكفله كلُّ الدَّساتير والشَّرائع الحضاريَّة ، غير أنَّ مضامينه العُنصريَّة وما تُسبِّبه من تهديد للأمن العام والنَّسيج المجتمعي تشكِّل خطاباً عدائيّاً يستغلُّ مبدأ " حريَّة التَّعبير " لإشاعة أشكال العنف والكراهية ، ومن هنا فإنَّ « معضلة تعريف خطاب الكراهية في الدُّول الدِّيمقراطيَّة تكمن في حرصها على أن لا يتمَّ بمناسبة ذلك تقييد حريَّة الرَّأي والتَّعبير ، أمَّا في الدُّول غير الدِّيمقراطيَّة أو الدُّول شبه الدِّيمقراطيَّة فإنَّ المعضلة هي الخشية من أن تستغلَّ هذه الدُّول موضوع خطاب الكراهية كوسيلة لتكميم الأفواه والبطش بالمعارضين وبالنَّتيجة مصادرة حريَّة الرَّأي والتَّعبير » [يُنظر : كراجة، 2017 م].

وقامت مفوّضيَّة الأمم المتَّحدة السَّامية لحقوق الإنسان في الرِّباط ، بوَضْع « خطَّة عمل بشأن حظر الدَّعوة إلى الكراهية القوميَّة أو العنصُريَّة أو الدِّينيَّة التي تُشكِّل تحريضاً على التَّمييز أو العداوة أو العنف » [يُنظر : كتاب : هل تنجح خطَّة عمل الرِّباط في مكافحة خطاب الكراهية وحماية حريَّة التَّعبير ؟، ص: 09]. واعتبرت مفوّضيَّة الأمم المتَّحدة السَّامية لحقوق الإنسان " نافي بيلاي " أنَّ معالجة " خطاب الكراهية " يكون بـ« تحديد موضع الخطِّ الفاصل بين حريَّة التَّعبير والتَّحريض » [المرجع السَّابق ، ص : 05]. وأقرَّت بأنَّ هناك تبايناً شديداً في الآراء في تحديد هذا الخطِّ الفاصل بسبب « المعادلة المعقَّدة بين حريَّة الكلام والحماية من التَّحريض » [المرجع السَّابق ، ص : 05].

ونجد على سبيل المثال لا الحصر " ديوان التَّشريع والرَّأي الأردنيّ " قد عرَّف " خطاب الكراهية " بأنَّه : « كلُّ قولٍ أو فعلٍ من شأنه إثارة الفتنة أو النَّعرات الدِّينيَّة أو الطَّائفيَّة أو العرقيَّة أو الإقليميَّة أو التَّمييز بين الأفراد أو الجماعات » [يُنظر : كراجة : [2017 م]]. ويأتي القُصور في هذا التَّعريف من

شموله لأيِّ خطابٍ ناقد ، وليس بالضَّرورة أن يكون كلُّ خطاب ناقدٍ داعياً للكراهية ، ومن هنا تكمن الصُّعوبة في التَّعريف والضَّبط . إذ توجد حدودٌ دقيقة جداً تصل إلى حدَّ التَّماهي بين " خطاب الكراهية" و"حريَّة التَّعبير" .

وتأتي تعريفات الخطاب – عموماً – ممتزجةً مع تعريف النَّصّ ، ومن يميِّز بينهما يجعل مصطلح " الخطاب " خاصّاً بالقول (المقروء / المسموع) ، ومصطلح النصَّ خاصّاً بـ " المكتوب " (المكتوب / المقروء) . ممَّا يجعل الخطب الجمعيَّة (وخطب الجمعة) ضمن مصطلح " الخطاب"، وعلى هذا يعرَّف "خطاب الكراهية" بأنَّه : « كلُّ كلام يُثير مشاعر الكره نحو مكوِّن أو أكثر من مكوِّنات المجتمع ، ويُنادي ضمناً بإقصاء أفراده إمَّا بالطَّرد أو الإفناء أو بتقليص الحقوق أو اغتيال الشَّخصيَّة ، ومعاملتهم كمواطنين من درجة أقلّ ، كما يحوي هذا الخطاب ، ضمناً أو علناً نظرةً استعلائيَّة كأساس يُمكن أصحابه من الشُّعور بالتَّميُّز والاستحواذ وامتلاك الحقيقة والحقوق ، وقد يتجاوز هذا الخطاب الحدود الجغرافيَّة للبلد الواحد ليمتدَّ إلى بلدان أخرى »[السَّرحان ، [2017 م]، ص : 07 .]. وهذا التَّعريف نرى التَّركيز فيه على ما يُنتجه الخطاب من آثار عنيفة على الأفراد والمجتمع ممَّا يسمح بوصفه بـ " الكراهية " بإقصاء الآخر وعدم القبول به إلى حدِّ ازدرائه أو السَّعي لطرده وحرمانه من حقوقه .

وفي التَّأصيل اللغوي للكراهية نجد أنَّ لفظ " ك ر هـ "كما يقول " ابن فارس " : « أصلٌ صحيحٌ واحد ، يدلُّ على خلاف الرِّضا والحبّ (...) ويُقال من الكره الكَرَاهِيَة الكَرَاهِيَّة . والكَرِيهة : الشدَّة والحرب، ويقولون : إنَّ الكَرْه : الجَمَل الشَّديد الرَّأس ، كأنَّه يكره الانقياد » [ابن فارس، [1979 م]، ج 05، ص : 172 – 173]. وهذا التَّعريف يُنير السَّبيل إلى معرفة بعض دوافع الكراهية وأسبابها، التي تقوم على خلاف الرِّضا والحبّ ، وهي السَّبب في الحروب ، بل الحرب أحد مشتقَّاتها ، كما أنَّ من يتشبَّثون بالرَّأي الواحد ولا ينقادون للرَّأي المخالف مع صوابه (الدُّغمائيُّون) ، أشبه بـ " الكَرْه " وهو الجَمَل الشَّديد الرَّأس ، كأنَّه يكره الانقياد !

أمَّا اصطلاحاً فنجد أنَّ هناك مجموعة من التَّعريفات المتقاربة لخطاب الكراهيَّة ، وتطغى، وفقاً لمصادر هذه التَّعريفات سمة المفهوم المغلوط ، ويشير أحد تلك المصادر إلى ذلك بالقول : « يمكن تعريف خطاب

الكراهية على أنَّه توجيه نعوتٍ قاسية وإهانات شخصيَّة عدائيَّة للفرد المقصود أو لمجموعة عرقيَّة ، دينيَّة ، وأصول إثنيَّة ، أو لجنسٍ ما ، على نحوٍ قد يحرِّض على العنف والكراهية أو التَّمييز » [مورفي : 2017 م]. وليس هذا التَّعريف بالمنضبط والجامع لمعاني " خطاب الكراهيَّة " ولا الحادّ لغيرها من التَّعريفات ، فأغلب مفرداته ممَّا يخضع للاختلاف الإيديولوجي ، ومنها مصطلحات : " دينيةً " ، "إثنيَّة"، "عرقيَّة " . فضلاً عن عدم تقييد حدود " الكراهية " وانضباطها فما حدود القسوة في كلمة "قاسية"؟ وما حدود العداء في كلمة " عدائيَّة " ؟ لنحكم على الخطاب بأنَّه خطاب كراهية ، ممَّا يجعل هذا التَّعريف قاصراً عن أن يكون جامعاً مانعاً .

ولهذا تُعدُّ إشكاليَّة " خطاب الكراهية " إشكاليَّةً عالميَّةً بدليل خضوعها للبحث والدَّرس ، ومن هذه الدِّراسات الغربيَّة دراسة (Bielsko and Biata 2015) بعنوان:"المواجهة الفعَّالة ضدَّ خطاب الكراهيَّة " « تمثَّلت أبرز أهدافها بوضع أُسُس وطُرق حديثة للتَّقليل من تأثير خطاب الكراهية وتداعياته ، وخلصت أهمُّ نتائجها إلى أنَّ خطاب الكراهية أصبح حقيقةً مقلقةً جدّاً يجب أن يتمَّ التَّعامل معها بطريقة مسؤولة ، من خلال إطلاق حملات توعويَّة وتعليميَّة للجميع تتعلَّق بالحقوق واحترام حياة الآخرين وخصوصيَّتها ، واعتبرت أنَّ الإنسان وُلد حرّاً ومتساوياً في الكرامة والحقوق وأنَّه يجب أن يتعامل مع الآخرين بنوع من الأخوَّة والمحبَّة ، ولذلك فإنَّه يتوجَّب على الجميع التَّصدِّي لخطاب الكراهية عبر وسائل التَّواصُل الاجتماعي ، والعمل يداً بيد لغرس بذور المحبَّة والعناية والتَّفاهم والتَّسامح » [السَّرحان، ص : 07 – 08]. وفي دراسةٍ أخرى بعنوان : " دور الإعلام في الحدِّ من خطاب الكراهية ونشر ثقافة الاعتدال " للدُّكتورة : " ندى عبُّود جار الله العمار " ، تؤكِّد في البداية صعوبة تعريف "خطاب الكراهية" فتقول : « بادئ ذي بدء لا بدَّ من التَّأكيد أنَّه لا يوجد مفهومٌ واضحٌ لخطاب الكراهية وإنْ عرَّفه البعض على أنَّه كلُّ قولٍ أو سلوك أو فعل علني يُحرِّض على العنف أو يدفع إلى إثارة الفتنة المجتمعيَّة » [العمار، [د.ت]].

وبيَّنت هذه الدِّراسة اختلاف توصيفاته ، إذ يأخذ تعريف " خطاب الكراهية " توصيفات عدَّة يمكن إجمالها في أنَّه يتمثَّل : « في العنف اللفظي المُتضمَّن في الخطاب الدُّوني أو الرَّافض للآخر. ويشمل هذا الخطاب الكُره البيِّن والتَّعصُّب الفكري والتَّمييز العنصري والتَّجاوزات التَّعبيريَّة القدحيَّة والنَّظرة الاستعلائيَّة في الخطاب المصحوب بالإقصاء » [بن مالك، (نور الدِّين –)]. وبالتَّالي : « يُصبح الحديث عن خطاب

الكراهية كظاهرة اجتماعيَّة سياسيَّة واتِّصاليَّة معقَّدة ومركَّبة ، تفاقمت بما شكَّل آفةً انتشرت مع انتشار وسائل الإعلام والاتِّصال الاجتماعي »[العمار، المرجع السَّابق].

والملاحظ على مختلف هذه التَّعريفات أنَّها حاولت مقاربة مفهوم " خطاب الكراهيَّة " ، وأشار بعضها إلى الخطاب الدِّيني ومساهمته في إذكاء نار هذا الخطاب ، دون الإشارة إلى دور الخطب المسجديَّة، وهو ما ننبري لبيانه، وبيان أسبابه، وخطورته، وأهميَّته في توجيه " الخطاب " . الذي يتمُّ خلاله الاستقطاب الدِّيني للشَّباب من قِبَل جماعات دينيَّة تُخالف الخطاب المسجدي الوسطي والمعتدل ، البعيد عن العنف والكراهية .

3 . أسباب خطاب الكراهية :

يُرجع البعض أسباب " خطاب الكراهية " إلى « تكاثف الشُّعور بالإحباط لدى الشَّباب ؛ الذي يلعب دوره في تحويل الشَّخص العادي إلى متطرِّف ، كما أوضح ذلك عالم الاجتماع الفرنسي " جيرالد برونر "[Gérald Bronner, 2009, p 251] في كتابه " الفكر المتطرِّف ؛ كيف يصبح النَّاس العاديُّون متعصِّبين " ، حيث ينضاف اليأس من عالم خارجيٍّ معادٍ إلى الإحباطات الفرديَّة ، ممَّا يُلهم فئات عمريَّة وتتحوَّل مع تكاثف الشُّعور بالإحباط هذا إلى العنف بفعل حركة المقاومة التي قد تجابهها من النِّظام الاجتماعي السَّائد » [بن مالك ، (نور الدِّين –)].

ويتأكَّد " خطاب الكراهية " بالعزم والتِّكرار والتَّأليب والحشد ، مع الحثِّ على البغضاء والمعاداة فـ « فعل الكراهية هو فعلٌ تراكمي أو حملة أو نمط سلوك وهو يحمل في طيَّاته معنى " التَّأليب " أي الحشد والتَّحريض ، وأعتقد أنَّ كلمة " تأليب " في اللغة العربيَّة تحمل هذا المعنى أكثر من غيرها » [يُنظر : خطاب الكراهيَّة وضبط المصطلح ، مرجع سابق]. وهو الحامل لطابع " الشَّخصانيَّة " ، التي يُمكن أن تتحوَّل إلى " فعل جمعي " متبادل ، ويمكن تجسيدها بقول الشَّاعر :

الله يعلم أنَّا لا نُحبُّكمُ *** ولا نلومكمُ إن لم تحبُّونا !

فهو لا يُخفي كراهيَّته للآخر وعداوته له ، ولا تخفى عليه عداوة الآخر وكراهيَّته له . وتزداد حدَّة " خطاب الكراهيَّة " حين يتحوَّل إلى فعلٍ إجراميّ ، يُجاوِز به صاحبه حدود القول إلى الفعل ، وقد ارتفعت موجة الكراهيَّة مع ارتفاع " الإسلاموفوبيا " ، وما يُسمَّى بـ " ثورات الرَّبيع العربي " ، و" الرُّسومات المسيئة

لشخصيَّة الرَّسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم " ، " والفتنة الطَّائفيَّة بين السنَّة والشِّيعة " ، وانتشار الطُّرق الصُّوفيَّة والأفكار الجديدة ، ومنها " الأحمديَّة " و " الكركريَّة " ، وتنامي وسائل الاتِّصال ... وغيرها . وهناك من يعتبر " مقتل " الشَّيخ " محمَّد سعيد رمضان البوطي " وهو يُلقي خطبة مسجديَّة نتيجة لـ " خطاب مسجدي آخر " ! [ونقصد هنا خطبة العلاَّمة : يوسف القرضاوي – رحمه الله – ، التي أعلن فيها ما رآه خطأ في توجُّه العلاَّمة سعيد رمضان البوطي – رحمه الله – في انحيازه للسُّلطة على حساب الموقف الشَّعبي الرَّافض لـ " بشَّار الأسد " وسياسته في " الفتنة السُّوريَّة " أطفأ الله نارها . يُنظر : (www.youtube.com/watch?v=DkzBoCDK3Ug) ويقول " محمَّد توفيق البوطي (ابن البوطي) : بأنَّ " القرضاوي " هو من أفتى بقتل والده، يُنظر : (www.youtube.com/watch?v=M2XVIYHYxuk)] تمَّ تأويله عند البعض ليتحوَّل إلى فعلٍ إجراميّ شنيع ، ذهب ضحيَّته أحد أبرز أعلام الأمَّة الإسلاميَّة في العصر الحديث. وبهذا « يؤسِّس مصطلح " خطاب الكراهية " إلى إشاعة الخوف والغضب والاضطراب المفضي إلى السُّلوك غير المنضبط والمؤذي في كثيرٍ من الحالات » [السَّرحان، مرجع سابق ، ص : 04 .]. فيكون بذلك " التَّديُّن المغلوط " أحد أبرز أسباب خطاب الكراهية الدِّيني ، الذي يتَّخذ من المساجد والخطب الجمعيَّة وسيلة لنشره وإشاعته ، بزعم الالتزام الصَّحيح . وهو ما كانت تستغلُّه " السُّلطة الحاكمة" حسب ما تورده كتب التَّاريخ في توجيه " الخطاب المسجدي " بما يخدم هذه السُّلطة ، وقد يحملها عدم استيعاب " حريَّة الرَّأي والتَّعبير " وعدم قبول " الرَّأي المخالف " على الفتك بالمخالفين بالسَّجن والتَّقتيل والتَّعذيب ممَّا يكون تجسيداً لعواقب " خطاب الكراهية " المؤسَّس على أغراض دنيويَّة ، وسوء فهم للمقاصد الدِّينيَّة .

ويكفي أن نعرض – هنا – شريطاً سريعاً لبعض نتائج هذا الخطاب وما يقود إليه من فساد ، سمح به للخليفة " هشام بن عبد الملك " أن يقتل المفكّر المعتزلي الحجَّة " غيلان بن مروان " ، وخطاب الكراهية هو ما حمل " الوليد بن عبد الملك " على أمره بضرب العالم النَّاسك " نجيب بن عبد الله بن الزُّبير " بالسَّوط حتَّى الموت . وصار الأمر سنَّةً متَّبعةً ، فتمَّ قتل العالِم المؤدِّب الجليل " صالح بن عبد القدوس " بتهمة الزَّندقة ، ولحقَ به الشَّاعر " بشَّار بن برد " بأمر الخليفة " المهدي " . وكان للمهدي لذَّةٌ خاصَّة في اضطهاد

المفكِّرين وذبحهم حتَّى أنشأ لهم حبساً عُرف بـ " حبس الزَّنادقة " لا يُسمح فيه للرَّأي الآخر بأن يطلَّ بقرنه ، وبعد " المهدي " نجد " المعتصم " (فاتح عموريَّة) يأمر بجلد المجتهد النَّابغة الجليل " أحمد بن حنبل " وحبسه ، وأمر " الواثق " بقتل سيِّد علماء عصره " أحمد بن نصر " ثمَّ صلبه . ومات " أبو يعقوب البويطي " خليفة الإمام الشَّافعي في حبسه ، وتمَّ قتل " ابن حيَّان السّبتي " العالم لأنَّه كان يقرأ في العلوم الرِّياضيَّة ، ولحق به المتصوِّف الزَّاهد " الحسين بن منصور " . وفي الأندلس تآمر وسطاء الدِّين المحترفون على " ابن حزم " و" ابن رشد " و" أبي جعفر الذَّهبي " و" أبي عبد الله " قاضي بجاية دفعة واحدة ، وقُتل " ابن حبيب " لاشتغاله بالفلسفة . أمَّا المفسِّر المؤرِّخ الكبير " الطَّبري " فقد تمَّ قتله بعد اتِّهامه بالإلحاد ولحق به الإمام " القشيري " علم الأشعريَّة الأشهر ، وغيرهم كثير ... [يُنظر مثل هذا وأشدّ : تغريدات " حسن بن فرحان المالكي " حول نصّ عقوبة الإعدام بالكويت ، وغيرها من كتاباته حول السَّلفيَّة وتشدُّدهم التي يُشير إليها في أغلب ما يكتبه أو ينشرُه ...]. وكانت الملاحقات الأمنيَّة لخطب الجمعة أحد أسباب تنامي خطاب الكراهية حتَّى عصرنا الرَّاهن ، في الوقت الذي كان يُرجى ان تكون هذه المتابعات الأمنية عينا ترقب به الدَّولة " خطاب الكراهية " فتوقفه عند حدِّه ، واستمرَّت هذه المراقبات إلى عصرنا هذا إذ « أفاد أئمة وخطباء أنَّ تقارير الأمن عن خُطبهم ودروسهم كانت هي الأهمّ من تقارير مفتِّشي الأوقاف ، ويتمُّ استدعاؤهم إلى مقرَّات أمن الدَّولة لسؤالهم عن تفاصيل ما يقولونه ، وأحياناً عن تفاصيل زيِّهم ومظهرهم ، وتوجيههم إلى عدم ارتداء القمصان (الجلابيب) البيضاء القصيرة أو العمامات ذات الذُّؤابة التي كانت مظهراً معتاداً لمشايخ " الجماعات الإسلاميَّة " أو التيَّارات السَّلفيَّة » [عزَّت، [2014 م]، ، ص : 31].

وصار توظيف الحكَّام والسَّاسة للخطب المسجديَّة فتيلاً يُمكن أن تشتعل به نار الفتنة والكراهية والتَّعصُّب الطَّائفي ، في الوقت الذي يُرجى فيه أن تكون " الجوامع " جامعات ، يُسمع فيه " للرَّأي والرَّأي " الآخر بالحجَّة والدَّليل البرهان ، وتبقى للمخالف بعد ذلك حُرمته ، وتُصان مكانته ، ويُحترم رأيه. ولكن « أفاد بعض الأئمَّة أنَّ مسؤولي الأمن وبَّخوهم لقيام شباب منتمين إلى جماعة الإخوان بإلقاء ملاحظات أو خواطر على هامش قراءة القرآن ونبَّهوهم بالسَّيطرة على جلسات القراءة أو وقفها »
[عزَّت، [2014 م]، ص : 31].

و« تعرِّف الأدبيَّات الفقهيَّة المساجد باعتبارها وقفاً لله ، أي خارج ملكيَّة آحاد النَّاس ، وترى أنَّ حقَّ إدارته واختيار أئمَّته يعود إمَّا لإمام المسلمين ومن ينوب عنه ، أو لصاحب وقف المسجد نفسه (أو الأوقاف التي تموِّل أنشطته) ومن ينوب عنه ، أو لجماعة المسلمين في مكان محدَّد » [عزَّت، [2014م]، ص : 05]. وهذا يقتضي أنَّ الخطاب الصَّادر من المسجد يكون في الغالب موافقاً لوجهة القائمين على إدارته ، وغير متعارضٍ مع توجُّهاتهم الدِّينيَّة ، و « في الخطِّ العام للممارسة التَّاريخيَّة كان الحاكم أو إمام المسلمين هو المسيطر على المساجد المركزيَّة الجامعة إمَّا بصفته أو لكونه منفقاً على المسجد عبر تخصيص أوقاف أخرى له للإنفاق على شؤونه وأجور الأئمَّة والخطباء والعلماء ، فيما عرف بالأوقاف السُّلطانيَّة ، أو لكون الإمام في الوقت نفسه ممثِّلاً ونائباً عن جماعة المسلمين في العواصم والحواضر » [عزَّت ، [2014 م] ،ص : 05]. وهو ما تراه الكثير من الجماعات الإسلاميَّة ومنها الجماعات السَّلفيَّة حجراً " لبيوت الله " على رأيٍ واحد تسعى أن تجد موطئ قدم لها فيه ، تنشُر من خلالها ما ترى أنَّه الدِّين الصَّحيح .

ومراقبة الخطاب المسجدي أدَّى إلى انتشار " خطاب الكراهية " بسبب هذا التَّحكُّم في أرزاق الأئمَّة والقائمين على إدارة المساجد ، وهو ما نلمح معناه منذ القديم فيما ذكره " الذَّهبي " في (سير أعلام النُّبلاء) عن " الأوزاعي " حين قال : « ما أخذنا العطاء حتَّى شهدنا على عليٍّ بالنِّفاق ، وتبرَّأنا منه ، وأُخِذَ علينا بذلك الطَّلاق والعتاق وأيمان البيعة ، قال : فلمَّا عقلتُ أمري سألت مكحولاً ، ويحيى ابن أبي كثير ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر ، فقال : ليس عليك شيء ، إنَّما أنت مُكره ، فلم تقرَّ عيني حتَّى فارقتُ نسائي ، وأعتقتُ رقيقي ، وخرجتُ من مالي ، وكفَّرت أيماني » [الذَّهبي، [1982 م]، ج 07 ، ص : 130 – 131]. وهو ما يزيد من إشكاليَّة تنامي " خطاب الكراهية " عندما يكون مدعوماً من السُّلطة بحكم سيطرتها على مؤسَّسات الخطاب الدِّيني ، وفي مقدِّمتها المساجد .

وقد كان المسجد وما يزال ساحةً للمعترك الدِّيني على اختلاف الأفكار والتَّوجُّهات ، قبولاً لها ورفضاً ، حيث تمثِّل المؤسَّسة الدِّينيَّة المظهر الاجتماعي للدِّين ، ويُمثِّل المسجد أو " الجامع " أبرز المؤسَّسات الدِّينيَّة الإسلاميَّة ، وتُعدُّ الخُطب الجمَعيَّة النَّموذجَ العملي لأهمِّ وظائف هذه المؤسَّسة الدِّينيَّة على الإطلاق ، بل إنَّ أبرز المؤسَّسات الدِّينيَّة في العالم الإسلامي هي في الأساس " جوامع " (جامع الأزهر ، جامع الزَّيتونة

، جامع القيروان ، الحوزات العلميَّة في إيران والعراق ... إلخ) . وقد كان مسجد " قباء " أوَّل مؤسَّسة دينيَّة في الإسلام ، تعمل على نشر مبادئ الدِّين الإسلامي ، وحلِّ إشكالات المجتمع ... مع أنَّ هذه الوظائف يراها البعض جُهوداً فرديَّة لا ترقى للعمل المؤسَّسي ، وفي هذا يقول " محمَّد عابد الجابري " إنَّه : « لم يكن هناك في التَّاريخ الإسلامي ، في أيَّة فترة من فتراته ، مؤسَّسة خاصَّة بالدِّين متميِّزة من الدَّولة ، فلم يكن الفقهاء يشكِّلون مؤسَّسة ، بل كانوا أفرادًا يجتهدون في الدِّين ويفتون فيما يعرض عليهم من النَّوازل أو تفرزه تطوُّرات المجتمع من مشاكل » [الجابري، [1996 م] ، ص : 62]. وأمام هذا التَّبائن بين اعتبار الجامع مؤسَّسة رسميَّة ، وبين اعتبار جهود القائمين عليه جهوداً فرديَّة لا علاقة لها بمؤسَّسات الدَّولة إلاَّ ما كانت تقوم به – قديماً – من إضفاء الشَّرعيَّة على السُّلطة القائمة ، تتجلَّى الأزمة التي يعيشُها " الجامع " اليوم كمؤسَّسة دينيَّة اجتماعيَّة تُمارس وظائفها الدِّينيَّة بشكلٍ يومي ، كما تمارس وظائفها الدَّعويَّة والإرشاديَّة والفقهيَّة بصورة أسبوعيَّة ضمن خُطب الجُمعة ، إذ يُتيح هذا للتيَّار السَّلفي المتشدِّد فُرص توجيه الخطاب الدِّيني بنزع صفة العمل المؤسَّسي على المسجد ، وممارسة أعمال فرديَّة في النُّصح والتَّوجيه قد تصل إلى حدود وصفها بـ " خطاب الكراهية " لما تحمله من فكر لا يكاد يقبل الآخر .

4 . الدِّين وخطاب الكراهية :

يرى البعض أنَّ أسباب التَّعصُّب وخطاب الكراهية الدِّيني ناشئٌ بسبب الدِّين ذاته ، باعتباره مصدراً للانحراف الفكري الذي يصعب تقويمه لاستناده إلى النُّصوص الشَّرعيَّة التي يُساء توظيفها بسبب الفهم والتَّأويل الخاطئَين ، حتَّى تصل الدَّعوى إلى اعتبار الدِّين مصدر الشرِّ والعداوات ، وهو ما يمكن أن نمثِّل له بتعبير " أبي العلاء المعرِّي " حين يقول :

« إنَّ الشَرائِعَ أَلقَت بَينَنا إِحَناً *** وَأَودَعَتنا أَفانينَ العَداواتِ » [المعرِّي، ج 01 ، ص : 271].

ويزيد هذا الأمر تحقُّقاً ، ما يُشيعه المتعصِّبون من المتديِّنين ، فنجد أنَّ مصطلحات : دار حرب ودار إسلام ، مسلمون وكفَّار ، سنَّة وشيعة ، الفتنة الكبرى ، داعش ، الإرهاب ... إلخ .كلُّها صنَعها الدِّين وحده . فيتصوَّر القائلون بهذا السَّبب أنَّ الدِّين هو ما أنتج كلَّ هذه المصطلحات ، وهو الذي نتج بسببه كلّ الفرق

الإسلاميَّة التي اختلفت في تأويلها مع وحدة النَّصّ ، وهو ما حمل البعض على النُّفور من الدِّين ، وإشاعة " خطاب الكراهية " لكلِّ ما له علاقة بالتَّديُّن مهما كانت ملَّة صاحبه ، ولسان حاله :

« عَجِبْتُ لِكِسْرَى وَأَشْيَاعِهِ *** وَغَسْلِ الوُجُوْهِ بِبَوْلِ البَقَرْ
وَقَوْلِ النَّصَارَى إِلَهٌ يُضَامْ *** وَيُظْلَمُ حَيّاً وَلَا يَنْتَصِرْ !
وَقَوْلُ اليَهُوْدِ إِلَهٌ يُحِبّ *** رَشَاشَ الدِّمَاءِ وَرِيْحَ القَتَرْ
وَقَوْمٌ أَتَوْا مِنْ أَقَاصِي البِلَادِ *** لِرَمْيِ الجِمَارِ وَلَثْمِ الحَجَرْ !
فَوَاعَجَباً مِنْ مَقَالَاتِهِمْ *** أَيَعْمَى عَنِ الحَقِّ كُلُّ البَشَرْ ! » [العقَّاد، [د.ت]، ص : 47].

وإذ تسعى " الخطب المسجديَّة " – في أحد أدوارها – إلى تربية النَّشء على معرفة تاريخ " السَّلف " فإنَّ اختلاف المعتَلِين للمنبر يجدون إشكالات كثيرة أمام ما يعترض الشَّباب من تساؤلات حول هذا الجيل وما كان فيه من اختلافٍ وصلَ إلى حدَّ " الفتنة الكبرى " ، ممَّا يحمل على الحيرة أمام اختلاف هذه المشارب واختلاف نُصوصها ، ليتساءلوا : كيف نعلِّم أبناءنا – مثلاً – أنَّ " حجر بن عديّ " (رضي الله عنه) قتله " معاوية " (رضي الله عنه) ! لأنَّه رفض سبَّ " عليّ بن أبي طالب " (رضي الله عنه)؟ فيكون أغلب ما نعلِّمه شبابنا دون الإجابات عن تساؤلاتهم بالإقناع والحجَّة ترسيخاً لخطاب الكراهية دون شعور .

ويتساءل المخاطَب لبعض هذه الخُطب كيف يُترضَّى على القاتل والقتيل ؟! وكيف يجتمع النَّقيضان في الأمر الواحد ؟ وهذا وغيره هو ما يحمل على تعصُّب كلِّ ذي رأيٍ برأيه ، ويصل التَّعبير عن هذا الرَّأي إلى ملامسة حدُود " خطاب الكراهية " بما يكون من الوقوف عند الرَّأي الواحد وحمل الآخر على القبول به رغم عدم اقتناعه به ، وهو ما يمكننا أن نُوضِّح به ما ذكرناه من إشكاليَّة التَّعريف التي يتقاطع فيها " خطاب الكراهية " مع " حرِّيَّة الرَّأي والتَّعبير " . لنقول إنَّ الاكتفاء بإبداء كلِّ ذي طرف لرأيه دون منع الآخر من إبداء رأيه المخالف ، والقبول بالاختلاف هو ما يجسِّد به " حريَّة التَّعبير " ، لكنَّ تجاوز ذلك إلى " إكراه " الآخر على الرَّأي ، أو حمل مشاعر " الكُره " نحوه بسبب خطاب ما هو ما يتحوَّل به إلى " خطاب للكراهية "، قد يجرُّ إلى العنف الجسدي بعد العنف القولي .

ونماذج هذا الشَّكل من الخطاب المسجدي وتصاعُده إلى " خطابٍ للكراهية " هو ما نجده – غالباً – عند من يدَّعون " امتلاك الحقيقة المطلقة " ، الذي ظلَّ مسلَّطاً فوق رؤوس المخالفين ، خاصَّةً إذا علمنا أنَّ " الخطب المسجديَّة " تنشأ على عين السُّلطة ومراكز النُّفُوذ التي تملك قدرة القهر والعقاب . وتملك توجيه الخطاب لأغراض سياسيَّة واجتماعيَّة وأيديولوجيَّة ... وهو ما يطفح به تاريخنا الإسلاميّ الذي يمنع فيه المفكِّرون وأصحاب الرَّأي الآخر من الوقوف في وجه " الخطاب المسجدي" ، لا سيما حين يكون مدعوماً بالسُّلطة ، وهو كذلك على الأغلب ، فينشأ التَّوتُّر والخلاف ، وتنمو بذور الكراهية ، وقد امتلأت صحائف التَّاريخ بنماذج من " خطاب الكراهية " ، بسبب إغلاق الأفهام على أحاديَّة الرَّأي ، وتكفير التَّعدُّد في الرَّأي ، وعدم القبول بالآخر ، والخلاف الدَّائم معه ، وصار هذا أبرز سمات ما يُسمَّى بـ" الخطاب السَّلفي " ، الذي صار يتشدَّد يوماً بعد يوم ، دون إفساح منابر الخطاب المسجدي الحرّ والواعي ، الذي يُحارب الفكرة بالفكرة ، لا أن يتحوَّل خطاب التَّفكير إلى خطاب تكفير، ويتحوَّل تفجير الطَّاقات والمواهب إلى تفجير الأجساد والمراكب ... [والتَّفجير لم يرد في القرآن الكريم إلاّ للماء رمز الحياة ، والخير : ﴿ **فَانْفَجَرَتْ** مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ **عَيْنًا** ﴾ [البقرة : 60] ، ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا **يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ** ﴾ [البقرة : 78] ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى **تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا**. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ **فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا** ﴾ [الإسراء : 90 – 91].﴿**وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا** ﴾ [الكهف : 33] . ﴿ **وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ** ﴾ [يس : 34]، ﴿ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا** ﴾ [القمر : 12] . ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** ﴾ [الإنسان : 06] . ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** ﴾ [الانفطار : 03] ... فتأمَّل !]وهو ما يرى " البوطي " – رحمه الله – خطره في إشاعة خطاب الكراهية لمجرَّد تسميتهم أنفسهم بـ " السَّلفيَّة " إذ تحمل هذه التَّسمية على تساؤل جليل ، وهو : « ما حكم ابتداع هذا الإطار الجديد لهذه الجماعة الجديدة ؟ وما هي آثار ذلك على صعيد الواقع الإسلامي ، وفي مجال الدَّعوة الإسلاميَّة ؟ وإذا اتَّخذنا من عصر السَّلف نبراساً لمذهب إسلامي جديد ، يرى أنَّ الحقّ ما يُنادي هو به ، والباطل ما يجنح إليه الآخرون ؟ » [البوطي، [2010م]، ص : 05]. ولنا أن نتصوَّر عظم ما يحدُث بعد هذا التَّساؤل ، وقد خصَّص الكتاب كلَّه للإجابة على هذا السُّؤال ليخرج بخلاصةٍ كانت عنوانَه ، وهي أنَّ : السَّلفيَّة مرحلة زمنيَّة مباركة لا مذهب إسلامي .

ورغم التَّبديع والتَّكفير الذي يعدُّ أبرز أشكال " خطاب الكراهيَّة " في الخطب المسجديَّة فإنَّ الواضح أنَّه كان على خلافات دنيويَّة تمّ فيها استخدام الدِّين لامتطاء الجماهير نحو أغراض ومطامع بشريَّة بحتة ، فدرس التَّاريخ يؤكِّد " فيما كشف عنه " علي حرب " أنَّ اختلاف المسلمين إلى فرق ومذاهب كان يقف على أرضيَّة دنيويَّة ، وأيّ علم أنشأته فرقة من الفرق هو علم مبتدع ، وكلُّ قولٍ جديدٍ قال به فقيهٌ هو محدّثٌ ، وأنَّ كلَّ فرقةٍ فقهيَّةٍ على اختلاف الفرق قد تعرَّضت للخطأ والنِّسيان والتَّوهُّم مهما بلغت درجة الفقهاء ، فقد كانوا بشراً لا آلهة .

ومن أبرز إشكالات التَّأصيل لـ " خطاب الكراهية " عقيدة " الولاء والبراء " ! التي يعمل بها "السَّلفيَّة" بموالاة من يكون على نمط أفكارهم وتوجُّهاتهم ، ويُعادون من هو خلاف ذلك ، وعقيدة الولاء والبراء، هي المؤسِّس الأوضح لمعنى "كراهية " الآخر ، والبراءة منه ، وعدم موالاته ، وهذا ما يحمل – دون شكّ – على " معاداته " وخُصومته ، بهجره ، وعدم ردِّ السَّلام عليه ، والتَّضييق عليه في الطُّرقات... وهو خلاف سماحة الإسلام ، ودعوته للمخالف إلى الحدِّ الذي وصف الله به ما جاء به المخالفون بأنَّه " عمَل " وأنَّ ما جاء به المسلمون " إجرام " ! دفعاً لما قد يتوهَّمه " الآخر " من "خطاب الكراهية " ، وهو ما نلمح بعض دلالاته في قول الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ** لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قُلْ لَا تُسْأَلُونَ **عَمَّا أَجْرَمْنَا** وَلَا نُسْأَلُ **عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [سبأ : 24 – 25] . ولاحظ كيف جمع الله بين المسلم والمخالف في عدم امتلاك الحقيقة المطلقة بالقول ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ** لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

ولهذا كان التَّكفير بسبب الولاء والبراء من أبرز أسباب " خطاب الكراهية " الذي يكون – غالباً – بسبب اختلاف وجهة النَّظر في الأمر الواحد ، فهذا – مثلاً – " أبو محمَّد بن خزيمة " الشَّافعي وقد وضع كتاباً سمَّاه (كتاب التَّوحيد) ! [المعلمي، ص : 439]. ليأتي بعده بقرون " الفخر الرَّازي " شافعي أشعري ليصف هذا الكتاب بأنَّه (كتاب الشِّرك) ! . وكذا تكفير " ابن تيمية " و" ابن القيِّم " ، وقد كانا مكفِّرين لغيرهما . وقد يصل حدُّ الكراهية كما أسلفنا إلى القتل ، كالذي فعله " خالد بن عبد الله القصري " ، حين " ضحَّى " ! بـ " الجعد " عند المنبر في يوم عيد ! ...[إذ خرج حاكم البصرة "خالدُ القسري" على النَّاس خطيباً يوم عيد الأضحى و" الجعد بن درهم " في وثاقه ، ليقول : أيُّها النَّاس، ضحُّوا تقبَّل الله ضحاياكم، فإنِّي مُضحٍّ بـ " الجعد بن درهم " . وهذا ما ذكره ابن القيِّم في نونيَّته : وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ

خَالِدُ الـ *** قَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ !] .[ابن القيِّم، ص : 21] في خطبةٍ مسجديَّة بسبب رأيٍ خالفه فيه !

والسَّبب الآخر في تنامي " خطاب الكراهية " واعتماد الدِّين في إثارته " الخلط بين الدِّين والفكر الدِّيني"، وهما متباعدان ، فالدِّين إلهيٌّ مطلق الصحَّة ، والفكر الدِّيني إنسانيّ نسبيّ الصحَّة ، والخلط بينهما يُضفي على الرَّأي مسحةً مُطلقة ، تجعل صاحبه متحصِّناً بادِّعاء أنَّه صحيح الإسلام ، وأنَّ مخالفه مخالفٌ للإسلام . وفي هذا يقول " ابن المقفَّع " : « إنَّ الدِّين يسلم بالإيمان ، وأنَّ الرَّأي يثبت بالخصومة، فمن جعل الدِّين خصومةً فقد جعله رأياً ، من جعل الرَّأي ديناً فقد صار شارعاً ، ومن كان هو يشرّع لنفسه الدِّين فلا دين له » [ابن المقفَّع، [1999 م]، ص : 40]. ومثل هذا الخلط كثير في كتابات الجماعات المتستِّرة بالدِّين ، وهو مجرَّد محاولة إضفاء حصانة على رأيٍ بشريٍّ تحميه من الانتقاد ، وتفرضه على النَّاس فرضاً بزعم أنَّه صحيح الدِّين ، وهذا هو ما يجعله ضمن دائرة " خطاب الكراهية " ، بل ضمن أبرز أنواعها .

وقد كان للفعل السِّياسي والمطامع الدُّنيويَّة دورٌ كبير في صياغة " خطابات الكراهية " ، بوضع أحاديث مكذوبة على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ساهمت في الشَّرخ الموجود بين المسلمين ، فحتَّى صلاة الجماعة لمَّا كان بنو أميَّة وولاتهم يُحبُّون أن يروا زعماء المعارضة في المسجد كلَّ يوم وقت صلاة فإنَّهم اخترعوا أحاديث في التَّشدُّد في صلاة الجماعة لدرجة أنَّه يجوز تحريقهم (لولا ما في بيوتهم من الذرِّيَّة لأمرتُ من يُصلِّي بالنَّاس ثمَّ أخلف إلى أناس لا يشهدون الجماعة فأحرِّق عليهم بيُوتهم) ... وعنها يقول " المالكي " : هذا من أحاديث " الحَجَّاج " وأمثاله وليست من أحاديث رسول الله ، لكن كيف نستطيع أن نخبر النَّاس وكيف يقتنعون وقد تشبَّعوا بمنهج تصحيح وتضعيف قائم على التَّواصُل مع السُّلطة ؟ وكيف والنَّاس لا يبحثون وإنَّما يسمعون ؟ [يُنظر : المالكي، 90]. وما يحمل على هذا التَّشدُّد الشَّباب " المتديِّن حديثاً " ، وهو ما يضاف إلى مجموع الأسباب السَّابقة ، وهو ما أثبتته بعض الدِّراسات ، ومنها : « أبحاث ميدانيَّة قدَّمتها الأنثروبولوجيَّة الفرنسيَّة "دنيا بوزار " رئيسة "مركز الوقاية ضدَّ الطَّائفيَّة المتعلِّقة بالإسلام " ... [Bouzar , 2015] أفادت أنَّ نسبةً مهمَّةً من الحالات التي يتمُّ رصدها

بين الشَّباب المجنَّدين [في العمليَّات الإرهابيَّة] ، أو من هـم في طريق التَّجنيد هـم حديثو عهد ، إمَّا بالإسلام أو بالتَّديُّن » [نفس المرجع].

ونختم أسباب تنامي " خطاب الكراهية " بعرض نماذج من الاختلاف العقدي الذي يشغل " السَّلفيُّون " به الأوقات ويشغبون به على المخالف إلى حدِّ التَّكفير ، ونعرض معه بعض آراء " ابن تيمية " المتشدِّدة في هذا الأمر ، ممَّا يعتمده السَّلفيَّة سنداً ومرجعاً يحتكمون إليه ، ويحملهم على معاداة من يُخالفه .

ومن ذلك عقيدة " ظهر البعوضة " ، وهي تجويز " الدَّارمي " أن يستقرَّ الله على ظهر بعوضة ! وثناء " ابن تيمية " على ذلك ! ، وقد وصف " المالكي" فعل ابن تيمية هذا بالخداع ، بقوله : فابن تيمية مخادِع ، لأنَّ ابن تيمية يذهب إلى أفحش الكُتُب في الإساءة للذَّات الإلهيَّة فيُثني عليها ، وإلى أسوأ المذاهِب تجسيماً كالسَّالميَّة أصحاب " عَرَق الخيل " فيُدخلهم في السنَّة . وهو بهذا يكون قد أحال العامَّة المساكين إلى الوُقُوع في الفخِّ وترك لأتباعه ومُريديه فُرصة بأنَّه لم يقُل بهذا ، وإنَّما دلَّ على كُتُب العقيدة في الجُملة ، وبهذا يجمع بين الدَّعوة إلى التَّشبيه والتَّجسيد وبين التَّخلُّص الظَّاهري منها عند أتباعه ، وهذا بلا شكٍّ لكنَّه إثم ، فالدَّالُ على ضلالة كفاعِلِها [يُنظر: المالكي، موقع المالكي].

وهذا الاختلاف الذي يؤصِّل له " ابن تيمية " يجعل خطاب الكراهية يستفحل ، لحساسية الخوض في مسألة العقيدة ، واعتبار من خالفها خارجاً عن الملَّة ممَّا يحمل الأتباع على تكفير بعضهم بعضاً ، والتَّكفير أقسى ما يمكن أن يصل إليه " خطاب الكراهية " ، فـ " الأهوازي " – مثلاً – اعتبره " ابن عساكر " من المجسِّمة ، واعتبره " ابن تيمية " من أهل السنَّة والجماعة ! وهذه من خدعاته ، فـ " الأهوازي " في كتابه حديث أنَّ الله خلق نفسه من عَرَق الخيل ! فكيف يدخله " ابن تيمية " في أهل السنَّة ؟ هذا ونحوه من خدعاته ، لأنَّ أتباعه يُصدِّقونه عندما يقول : (إنَّما نُثبت لله من الصِّفات ما أثبته الله لنفسه أو ما أثبته رسوله ولا نقبل الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة) ، ثمَّ يضمُّ مذهب المجسِّمة (كالأهوازي) أصحاب عَرَق الخيل إلى أهل السُنَّة والجماعة، ويُصحِّح عقيدة "الشَّاب الأمرد" [وحديث الشَّاب الأمرد : وهو حديث مكذوب على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم زعموا فيه أنَّ الله على هيئة شاب أمرد . وصحَّحه بعض السَّلفيَّة ، ومنهم " ابن صدقة "كما في إبطال التَّأويلات (01 / 140) وشنَّع على مخالفه بقوله : (من لم يؤمن بحديث عكرمة فهو زنديق) !] ويُوصي بكتاب "الدَّارمي" صاحب عقيدة " ظهر البعوضة " ،

ويُحارب المنزِّهة من أشاعرة ومعتزلة وغيرهم ويُطلق عليهم أسوأ الألقاب ويُفتي بجواز قتلهم جميعاً ولكن بمكر أيضاً ، كأن يقول : (من قال كذا وكذا يُستتاب وإلاَّ قُتِل) ! " [يُنظر: المالكي، نفس المرجع].

ولعلَّ مثل هذه الأقوال من " ابن تيمية " هي ما حمل الذَّهبي ، على كتابة (النَّصيحة الذَّهبيَّة) إليه، وهي ما سار عليه أتباعه في الكذب على رسول الله ، كدعاويه الكثيرة في الأحاديث بأنَّ هذا الحديث غير موجود في كُتُب السنَّة (وهو فيها مصحَّحاً) ، أو هذا الحديث موضوع بالإجماع (وهو صحيح أو حسنٌ ولم يقُل بوضعه أحد) ، أو زعمه أنَّ هذا الحديث في الصَّحيحين أو أحدهما (وهو ضعيفٌ أو موضوع) ! أو هذه السُّورة مكِّيَّة بالإجماع (مع أنَّها مدنيَّة) أو أنَّ الحادثة التَّاريخيَّة الفلانيَّة مكذوبة (مع أنَّها في الصَّحيحين أو غيرهما) وهذا الحديث مكذوب عند أهل السُنَّة (مع أنَّه صحيحٌ عِندَهُم) ونقل الإجماعات الكاذبة التي يكثُر منها لإمساك عقل القاري من التَّفلُّت والاستحواذ على محاولاته للمراجعة والتَّأكُّد من الأمور ... وأنَّ هذا من أساليبه سامحه الله عندما يتعصَّب في مسألة ، وساعده في الانتشار أنَّ أكثر طلبة العلم هم في الحقيقة من العوام ، فلا يُراجعون أقوال ابن تيمية وإنّما يأخذونها كأخذهم النُّصُوص بل أعظم ، لأنَّ النُّصُوص يرون فيها النَّاسخ والمنسوخ أمَّا كلام ابن تيمية فكُلُّه ناسخ لما قبله وما بعده ، فيبدو أنَّ " ابن تيمية " كان يعرف أنَّ أكثر أتباعه لا يُراجِعون هذه المسائل لثِقَتهم المطلقة في نقولاته عن المصادر والعلماء ، بل هم إلى اليوم – رغم توفُّر كثير من المصادر – لا يرجعون لها وإنَّما يكتفون بقولهم : (قال شيخُ الإسلام .. رجَّحه شيخ الإسلام ... ضعَّفه شيخ الإسلام .. أنكره شيخ الإسلام ..) مع أنَّ العلماء المتعصِّبين له قديماً كالذّهبي يُقرُّ بأنَّ ابن تيمية يقع منه الكذِب .

وهذه اختيارات من أقوال " الذَّهبي " من " نصيحته " [ويمكن الاطِّلاع على " النَّصيحة الذَّهبيَّة " عند : المنجِّد،[1976 م]]: يقول مخاطباً " ابن تيمية " : (إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجِذع المعترض في عينك) ! ويقول : (إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمُّ العلماء وتتبّع عورات النَّاس) ! وهذا ملاحظٌ في مسألة انتقاص العلماء والتَّعالُم عليهم بعرض أقوالهم مبتورةً ثمَّ الردِّ الشَّديد عليها فيظنُّ القارئ أنَّ " ابن تيمية " أعلم من هؤلاء جميعاً ، وعنده طريقة عجيبة في التَّهوين من الرَّأي الذي لا يُريد ، استفاد هذه الطَّريقة من الفلسفة ، فإذا أراد ردَّ حقٍّ ادَّعى كثرة اختلاف النَّاس في المسألة بقوله : (وقال آخرون كذا وقال غيرهم كذا وقالت طائفة كذا ... وهؤلاء يقولون ... ومنهم من قال ...

وبعضُهم يقـول ... لكنَّ أئمَّة السُنَّة يقولون ... وهذا متَّفقٌ عليه عِند العقلاء... وهذا الرَّأي أولى وأحرى ... إلخ ، وكـذلك إذا أراد نُصرة باطل أو رأي شاذٌّ تجده يلتمس له كلَّ قـولٍ لم يثبُت وكلَّ عُـذرٍ وكلَّ لازمٍ فيقـول : (وهذا القول قد قالت به طائفةٌ ... وهو روايةٌ عن أحمد .. وقال به بعض السَّلف بل أكثرهم .. وحُجَّتهم في هذا كذا .. ولا ريب أنَّ هذا أقرب ممَّن قال كذا... فإنَّ هؤلاء لا حُجَّة لهم في كذا ... إلخ) . فيخرج طالب العلم العامي منهكاً مستجيراً بالله من عظمة هذا العلم ويستسلم لما يُقرِّرُه " ابن تيمية " أو على الأقلِّ يُصبح تائهاً في المسألة لا يُقرِّر فيها شيئاً [وللتَّوسُّع في معرفة طريقـة " ابن تيمية " وخُدعه ، وعظيم تشدُّده ، وتساهله في الدّؤماء بالتَّكفير والتَّبديع ، راجع ما كتبه " حسن بن فرحان المالكي " ضمن فتاوى ابن تيمية ، على موقعه].

وقد حمله تعصُّبه – رحمه الله – على مناصبة آل البيت العداء ممالأةً لبني أميَّة بدعوى الاجتهاد ، وسار على نهجه بعض الأتباع المتعصِّبين ، وممَّن شهد على نصبه " ابن حجر العسقلاني " بقوله : « ومنهم من ينسبه إلى النِّفاق ! لقوله في عليٍّ ما تقدَّم ! ، ولقوله : إنَّه كان مخذولاً حيث ما توجَّه ! ، وإنَّه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها ! ، وإنَّما قاتل للرِّياسة لا للدِّيانة ! ، ولقوله : إنَّه كان يحبُّ الرِّياسة ! ، وإنَّ عثمان كان يحبُّ المـال، ولقوله : أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول ! ، وعليٌّ أسلم صبيّاً والصَّبيُّ لا يصحُّ إسلامه على قول ! ، وبكلامه في قصَّة خطبة بنت أبي جهـل ... وقصَّة أبي العـاص بن الرَّبيع ومـا يؤخـذ من مفهومها ؛ فإنَّه شنَّع في ذلك ! ، فألزموه بالنِّفاق !! لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : (ولا يبغضك إلَّا منـافق) !! » [يُنظر : العسقلاني، [د.ت]، ص : 155].

5 . خطاب التَّسامح مع المخالف :

وقبل عرض نماذج لخطاب التَّسامح نذكر سعي البعض ، ومنهم " معتزّ الفجيري " ، في دراسته عن: **حدود التَّسامح مع خطابات الكراهية في سياقات مجتمعيَّة مختلفة** ، والذي جاء ضمن كتاب (رواق عربي)، لبيان تلك الحُدود ، وبيـانه صعوبة وضعها وتحديدها، لا سيما عندما يتعلَّق الأمر بالقوانين الدّوليَّة ، ومثَّل لذلك بقضيَّـة " الهولوكوست" (حرق النَّازيين لليهود) ، وبيَّن كيف يتمّ الكيل بمكيالين في القوانين الدَّوليَّة أمام ما يتعلَّق باليهود ، ممَّا يجعل الأمر أبعد من مجرَّد حدود قانونيَّة لضبط خطاب الكراهية . وإذ أصَّلنا لنماذج تاريخيَّة من السَّلف مؤسِّسة لـ " خطاب الكراهيَّة " ، وَجَبَ أنْ نؤصِّل من تاريخ السَّلف –

أيضاً – لنماذج التَّسامح مع الآخر ، لكي لا يكون خطابنا متحيّزاً ، قد يُفهم منه خطاب الكراهية لفئة من النَّاس أو نمط من السُّلوك والاعتقاد ، ومن نماذج التَّسامح الواجب نشرها ما كان من سماحة الصَّحابة إزاء الانحرافات في العقيدة التي تمسُّ الله تعالى ، ولم يكفَّر أحدٌ فيها الآخر لاختلافهم في الرَّأي والتَّأويل .

فلم يُكفِّر الصَّحابة " القدريَّة " الذين قالوا إنَّ الله لم يقدر – ولا يقدر – على تقدير الهُدى والضَّلال على أحد ، بل قالوا إنَّ الإنسان يخلق عمل نفسه لنفسه بنفسه .. هدايةً أو ضلالاً. ولم يُكفِّر الصَّحابة الفرق التي زعمت منهم أنَّ الله أجبر الخلق وأكرههم على ما هم عليه، وأنَّ الكفر والإيمان والطَّاعة والمعصية في النَّاس كالبياض والسَّواد ، والطُّول والقصر في خلقه الآدمي ، ما للمخلوق في ذلك صُنعٌ ولا يد .. بل إنَّه لمَّا قُتل إمامهم غُسِّل وكفِّن وصُلِّي عليه ، ودُفن بمقابر المُسلمين . ولم يُكفِّر التَّابعون أحداً من المعتزلة الذي قالوا بخلق القرآن ، وأنَّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مُسلمٌ ولا هو كافر، بل هو خالدٌ في النَّار، وأنَّ الله لا يخلق ولا يُقدّر على العباد الذَّنب أو المعصية ، بل العبد يخلقها ويقترفها، وأنَّ الله لم يتكلَّم ، وأنَّ القرآن ليس بكلام الله ، بل هو خلقٌ ممّا خلق الله ، فليس لله كلامٌ عندهم. ولم يكفّروا المرجئة الذين قالوا: إنَّ الإيمان قولٌ بلا عمل ، فمن أقرَّ بالشَّهادتين ، فهو كاملُ الإيمان، وإن لم يُصلّ طول عمره ركعةً واحدة ، أو لم يقُم بطاعةٍ واحدة ، بل هو عندهم في مقام جبريل وفي منزلة الأنبياء والمرسلين سواء بسواء . ولم يكفِّروا الجهميَّة الذين يقولون: ليس على العرش إله يعبد ، وليس لله في الأرض كتُبٌ الله ولا ألواح ولا كلام ، ويُنكرون المعراج نهائيّاً ، كما ينكرون صفات الله التي جاءت في القرآن ، حتَّى قال فيهم ابن المبارك : إنَّا لنحكي قول اليهود ولا نحكي قول الجهميَّة . ومع هذا عندما قتل زعيمهم (الجهم بن صفوان) ووزيره (الجعدُ بن درهم) غسَّلوهم وكفَّنوهم وصلُّوا عليهم ودفنوهم في مقابر المسلمين[يبقى هذا التَّناقُض في التُّراث الإسلامي مما يحتاج عميق الدِّراسة لتفكيكه وفهمه، وهو ما لم يتسنَّ بعد]، ولم يجروا عليهم حكم الردَّة ولا الزَّندقة ، ولا الكفر أو الإشراك أو الوثنيَّة، مع أنَّ هؤلاء وسابقوهم هم أُصُول الفرق الاثنتين والسَّبعين التي جاءت في الحديث المشهور إن كان صحيحاً . وقد نقل ابن تيميَّة أنَّ الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر أهل هذه الفرق بل صلَّى خلف بعض الجهميَّة وبعض القدريَّة ، وأنّ أكبر ما توصف به كلّ تلك الفرق عند ابن تيمية هو الفسق [يُنظر : إبراهيم، [د.ت]، ص : 23 وما بعدها].

ومن سبل التَّخفيف من " خطاب الكراهية " إعادة صياغة " مفهوم التَّوحيد " الذي يحمل بسبب " السَّلفيَّة " سيف الولاء والبراء ، والمعاداة لكلّ من يخالفهم في فهمه ، ووجب بيان أنَّ الفرقة كُفرٌ وإشاعة معاني السِّلم والمؤاخاة في الخُطب المسجديَّة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ **يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا** كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : 100 – 103] . وهناك من يرى أنَّ مفتتح هذه الآية في قوله " كافرين " ليس كفراً بالله أو النبيّ أو الكتاب بل معنى كافرين أيّ (متفرّقين) . فسمَّى الفرقة كُفراً . ولنا في هارون – عليه السَّلام – مثلٌ في خشيته من الفُرقة أكثر من خشيته من " عبادة العِجل " من بني إسرائيل فقال لأخيه " موسى " – عليه السَّلام – : ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ **فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه : 94] . وعن " جندب بن عبد الله " – رضي الله عنه – أنَّ النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال : « اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه »[الحديث : متَّفق عليه] [يُنظر : طويلة، ص : 72]. ولا شكَّ أنَّ هذه الآراء قد تجد من يرفُضها لعدم الاقتناع بأدلَّتها ، فما يكون عليه إلاّ أن يعرض ما يُخالفها بأدلَّته وحججه ، دون إكراه للغير أو كره له .

6 . سبل مواجهة خطاب الكراهية :

بعد ما عرضناه من أسباب " خطاب الكراهية " يمكن القول إنَّ في تلافيها ما يمكن أن يقضي عليه ، ولكن ليس هذا بالأمر الهيّن ، ولذا وجب أن تتضافر الجهود للقضاء عليه أو الحدِّ منه على الأقل بإشاعة معاني الحبّ للإنسان كيفما كان ، وشعارهم قول " ابن عربي":

أَدِيْنُ بِدِيْنِ الحُبِّ أَنّیَ تَوَجَّهَتْ *** رَكَائِبُهُ فَالحُبُّ دِيْنِي وَإِيْمَانِي

وأخذ العبرة من مفهوم الاختلاف مع الآخر دون تكفيره أو معاداته ، وهو ما مثَّلنا له بـ : " محبَّة الحبيب بلسان عبَّاد الصَّليب " [بحث ألقيته بالمركز الجامعي بآفلو بمناسبة المولد النَّبوي الشَّريف]، إذ يقول أحد المسيحيين – مع مخالفته لشريعة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام – :

إِنِّي مَسِيْحِيٌّ أُحِبُّ محمَّدً *** وَأَرَاهُ فِي فَلَكِ العُلَا عُنْوَاناً .

لنقول إنَّنا أولى بمثل هذه المحبَّة منهم ، كما " نحن أولى بعيسى منهم " . دون كراهيةٍ توجب عداءً أو خطاب يورث إرهاباً . ويُضاف إلى هذا تأطير مفهوم " حريَّة التَّعبير " وكفالته ضمن قواعد " الحوار البنَّاء". لتتبيَّن حدود الخطاب الحرّ ، وحدود خطاب الكراهية ، وتستبين سبيل المجرمين .

ومن وسائل حظر خطاب الكراهية سنَّ القوانين الرَّدعيَّة :

وقد سعت الدُّول والحكومات – مع تزايُد موجة العنف والإرهاب والتَّطرُّف – إلى سَنِّ القوانين التي تحدُّ من " خطاب الكراهيَّة " دون المساس بحقوق التَّعبير عن الرَّأي ، أو التَّضييق على الحرِّيَّات ، ومنها ما نصَّت عليه المادَّة 20 من العهد الدَّولي الخاص بالحقوق المدنيَّة والسِّياسيَّة على أنَّه " تُحظر بالقانون أيَّة دعوة إلى الكراهية القوميَّة أو العنصريَّة أو الدِّينيَّة تُشكِّل تحريضاً على التَّمييز أو العداوة أو العنف " . و« تكاد تُجمع كلُّ شهادات الأئمَّة ومسؤولي الأوقاف [في مصر] أنَّ كلَّ تعيينات وقرارات الأوقاف كانت تتمُّ تحت الإشراف الأمني التَّفصيلي لجهاز مباحث أمن الدَّولة ، وأنَّ ذلك كان ملمحاً دائماً عبر عهود الوزارة » [يُنظر : لمن المنابر اليوم ؟ ، ص : 30].

ووصلت تلك القوانين إلى حدّ فرض الرَّقابة على الخطب المسجديَّة ، بل مختلف نشاطات المسجد ، « وكان مسؤولو الأمن يُنبِّهون الأئمَّة والخطباء بخصوص تواجد منتمين إلى جماعة الإخوان أو التيَّارات السَّلفيَّة ضمن روَّاد المسجد ، والتَّنبيه بمنعهم من الاشتراك بفاعليَّة والبروز في أيّ أنشطة دعويَّة أو خدميَّة بالمسجد ، والتَّنبيه عليه بالتَّواصُل مع الأمن بخصوص أيّ محاولات لتيَّارات سياسيَّة أو فكريَّة استغلال المسجد كمكان لأيّ نشاط ، حتَّى لو تجمُّع لقراءة القرآن » [ينظر : لمن المنابر اليوم ؟ مرجع سابق ، ص: 31]. وهو ما يعكس الخوف الشَّديد من " خطاب الكراهية" عندما يتدرَّع بالدِّين ، لكنَّه في الوقت ذاته يحمل الخوف من التَّضييق على الحريَّة بزعم حظر " خطاب الكراهية " في المساجد .

فقد « أفاد بعض الأئمَّة أنَّ مسؤولي الأمن وبَّخوهم لقيام شباب منتمين إلى جماعة الإخوان بإلقاء ملاحظات أو خواطر على هامش قراءة القرآن ونبَّهوهم بالسَّيطرة على جلسات القراءة أو وقفها » [ينظر: المرجع السَّابق ، ص : 31]. وبهذا النَّمط من محاربة خطاب الكراهية سنكون قد غرسنا خطاباً أشدَّ كرها ينمو تحت رماد القمع الأمني والمتابعات الأمنية .

وقد حاولت بعض الدُّول – ومنها ألمانيا – سنَّ قوانين تمنع بموجبه " خطاب الكراهيَّة " على مواقع التَّواصُل الاجتماعي ، وهو يستهدف « الحدَّ من العداء تجاه المهاجرين القادمين من سوريا والعراق وأفغانستان الذين صاروا مثار شكوك مستمرَّة بسبب أنشطة المتشدِّدين الإسلاميِّين »[يُنظر موضوع : قانون يهدف إلى القضاء على خطاب الكراهيَّة . على موقع " دليل " : (*www.dalil.org*)]. وتصل العقوبات فيه إلى 50 مليون يورو (60.1 مليون دولار) على المواقع التي لا تزيل خطاب الكراهية على الفور ممَّا يثير المخاوف من أن تحجب تويتر وفيسبوك وغيرهما من مواقع التَّواصل الاجتماعي محتويات أكثر من المطلوب ، وهو ما حمل صحيفة " بيلد " التي تتصدَّر مبيعات الصُّحف الألمانيَّة إلى إلغاء هذا القانون حيث تقول إنَّه يخنق حريَّة التَّعبير ويحوِّل السِّياسيِّين المناهضين للهجرة الذين تحذف منشوراتهم إلى أبطال [يُنظر موضوع: قانون يهدف إلى القضاء على خطاب الكراهيَّة. على موقع "دليل":(*www.dalil.org*)]. وبهذا يبقى الحلَّ القانوني الرَّدعي أحد الحلول وليس أنجعها . وعلى المقترحات القانونيَّة المسنَّة لمعالجة " خطاب الكراهيَّة " أن تنبع من فلسفة تشريعيَّة تهدف في أساسها لحماية حريَّة التَّعبير عن الرَّأي وليس مصادرته وقمعه بدعوى " معالجة خطاب الكراهية " .

وفي بعض البلدان العربيَّة ، ومنها مصر نجد أنَّه فضلاً عن الإشراف الأمني فهناك « نصّ قانون العقوبات يُشير صراحةً إلى كون الخطابة الدِّينيَّة مشروطة بعدم انتقاد الحكومة أو القوانين أو الإجراءات الرَّسميَّة ، حيث تنصُّ المادَّة 201 من قانون 58 لسنة 1937 م على : "كلّ شخص ولو كان من رجال الدِّين أثناء تأدية وظيفته ألقى في أحد أماكن العبادة أو في محفل ديني مقالة تضمَّنت قدحاً أو ذمّاً في الحكومة أو في قانون أو في مرسوم أو قرار جمهوري أو في عمل من أعمال جهات الإدارة العموميَّة ، أو أذاع أو نشر بصفة نصائح أو تعليمات دينيَّة رسالة مشتملة على شيء من ذلك يُعاقب بالحبس وبغرامة لا تقلّ عن خمسة آلاف جنيه ولا تزيد على عشرة آلاف جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين ، فإذا استعملت القوَّة أو العنف

أو التَّهديد تكون العقوبة السِّجن " وإن لم يتمَّ رصد أيِّ حالة قضائيَّة وفق هذا النَّصّ ! » [يُنظر : لمن المنابر اليوم ؟ ، ص : 31].

ونُشير ختاماً إلى اعتناء بعض الدِّراسات ومراكز البحث بمعالجة هذه القضايا ، ومحاولة إيجاد الحلول النَّاجعة للحدِّ من استفحال " خطاب الكراهية " مع تنامي وسائل التَّواصُل الاجتماعي الذي نجد من إمكاناته، بإبداء الإعجاب برسم تعليق بقلب (❤) عن محبَّة المنشور والإعجاب به أو بصاحبه ، ووضع علامة " الكره " بوسم المنشور بوجه شخصٍ حانق مكفهّر الوجه (😠) . ومن هذه الدِّراسات نذكر : دراسة : " إبراهيم سلامة " بعنوان : دور القانون والمجتمع المدني في مكافحة خطاب الكراهية الذي يُشكِّل تحريضاً على العنف "، ضمن كتاب (رواق عربي) ، سابق الذِّكر . ويكفي أن نعرف في الختام خطورة الكلمة لنتجنَّب " خطاب الكراهية " ، وكلَّ ما يُمكن أن نؤذي به الغير (وهل يكبُّ النَّاس في النَّار على وُجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم). نعوذ بالله من ذلك .

خاتمة :

إنَّ حلَّ مسألة الكراهية ليس بالأمر الهيِّن ، لا سيما مع بقاء الاختلاف الذي هو منشأ الكثير من أشكال الكراهية ، ويُعدُّ الاختلاف سنَّة الله في عباده ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [هود : 118 – 119] . ولهذا وجب الاقتناع بوجود الاختلاف في المجتمع ، والعيش بتناغم مع الجميع على اختلافهم ، وهذا وحده كفيلٌ بردم هوَّة " خطاب الكراهيَّة " والتَّقريب بين النَّاس بإشاعة المودَّة والسَّلام . وقد رأينا في بداية البحث صعوبة ضبط هذا المصطلح ، وأنَّ الحلّ لإشكاليَّة " خطاب الكراهية " يجب أن تبدأ بوضع معايير واضحة متَّفق عليها للحكم على تعبير ما بأنَّه يحتوي على خطاب كراهية أو تحريض على العنف . فضلاً عن إيجاد تعريف يُحدِّد ماهية " خطاب الكراهية " تحديداً دقيقاً .

ولأنَّ منشأ أغلب خطابات الكراهية في الخطب المسجديَّة كان سببها الاختلاف في الأمور العقديَّة ، والخوض في دقائق الألوهيَّة والمعتقد ، فإنَّه يبقى أن نذكِّر بنصيحة أحد النَّاصحين للمتدينين بقوله : (اتركوا الله في سبيل الله) ، وهو يعني اتركوا فكرة (الله) المشوَّهة ، التي تدعو للقتل والفتك والكراهية ... في سبيل (البحث عن الله) الحقّ ، إله المحبَّة والرَّحمة والسَّلام والخير ... ولا يكون إلاّ بـ(الهروب من الله

إلى الله)، والهـروب من "الكراهية" إلى "الحبّ"، والهروب من "إله الأديان" إلى " إله الوجدان"... وكلُّ ما نرجوه في ختام هذا البحث أن لا يكون ما ذكرناه عن خطاب الكراهيَّة المتأصِّل في بعض السَّلفيَّة، وما يحملونه من فكرٍ متشدِّدٍ في بعض كتابات "ابن تيمية" – رحمه الله – ممَّا يحمل على الكراهيَّة أو يتضمَّن خطاباً بكراهية، فتنتفي الغاية من البحث ونقع فيما منه نُحذِّر وما عنه ننأى .

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله الطَّاهرين . والحمد لله ربّ العالمين .

المصادر والمراجع :

01 - إبراهيم ، (محمَّد زكيّ الدِّين –) : **السَّلفيَّة المعاصرة إلى أين ؟ ومن هم أهل السنَّة والجماعة** ، مؤسَّسة إحياء التُّراث الصُّوفي، [د.ت] .

02 - البوطي ، (محمَّد سعيد رمضان –) : **السَّلفيَّة مرحلة زمنيَّة مباركة لا مذهب إسلامي** ، ط 14 ، دار الفكر ، دمشق ، سورية،[2010 م] .

03 - الجابري ، (محمَّد عابد –) : **الدِّين والدَّولة وتطبيق الشَّريعة** ، مركز دراسات الوحدة العربيَّة ، الدَّار البيضاء ، المغرب،[1996 م] .

04 - الذَّهبي ، (محمَّد بن أحمد بن عثمان شمس الدِّين –) : **سير أعلام النُّبلاء** ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط 02 ، مؤسَّسة الرِّسالة ، بيروت ، لبنان،[1982 م] .

05 - الزَّركشي ، (محمَّد بن علبد الله –) : **إعلام السَّاجد بأحكام المساجد** ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، مصر،[1999 م].

06 - السَّرحان ، (فيصل أحمد عبد العزيز –) : **الإعلام الجديد وخطاب الكراهية – استراتيجيَّات المواجهة** ، دراسة تحليليَّة على طلبة جامعة الزَّرقاء للفترة من 15 / 03 / 2017 م حتَّى 16 / 04 / 2017 م ، جامعة الزَّرقاء ، الأردن.

07 - طويلة ، (عبد الوهَّاب عبد السَّلام –) : **أثر اللغة في اختلاف المجتهدين** ، دار السَّلام للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة ، القاهرة، مصر،[1993 م] .

08 - عزَّت ، (عمرو –) : **لمن المنابر اليوم ؟** ، **تحليل سياسة الدَّولة في إدارة المساجد** ، المبادرة المصريَّة للحقوق الشَّخصيَّة، القاهرة ، مصر،[2014 م] .

09 – العسقلاني ، (شهاب الدِّين أحمد ابن حجر –) : **الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثَّامنة** ، دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر آباد ، الهند،[د.ت] .

10 - العقَّاد ، (عبَّاس محمود –) : **رجعة أبي العلاء** ،[د.ت] .

11 - العمار ، (ندى عبُّود جار الله -) : **دور الإعلام في الحدِّ من خطاب الكراهية ونشر ثقافة الاعتدال** ، جامعة بغداد ، كليَّة الإعلام ، قسم الصَّحافة الإذاعيَّة والتّلفزيونيَّة ، العراق،[د.ت] .

12 - ابن فارس ، (أبو الحسين أحمد -) : **مقاييس اللغة** ، تحقيق : عبد السَّلام هارون، دار الفكر ، دمشق ، سورية،[1979 م].

13 - ابن القيِّم ، (أبو عبد الله محمَّد -) : **الكافية الشَّافية في الانتصار للفرقة النَّاجية** ، ط 01 ، دار عالم الفوائد للنَّشر والتَّوزيع ، مكة المكرَّمة ، السَّعوديَّة ،[1428 هـ] .

14 - المعرِّي ، (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان -) : **شرح اللزوميَّات** ، إشراف ومراجعة : حسين نصَّار ، مركز تحقيق التُّراث، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

15 - المعلمي ، (عبد الرَّحمن بن يحيى -) : **التَّنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل** ، تحقيق : ناصر الدِّين الألباني ومحمَّد عبد الرزَّاق حمزة ، دار الكتب السّلفيَّة ، القاهرة ، مصر، [د.ت].

16 - ابن المقفَّع (عبد الله -) : **الأدب الصَّغير والأدب الكبير** ، تحقيق : إنعام فوَّال ، ط 03 ، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، [1999 م] .

17 - مجموعة من المؤلِّفين : **هل تنجح خطَّة عمل الرّباط في مكافحة خطاب الكراهية وحماية حريَّة التَّعبير ؟** ، إشراف: بهيّ الدِّين حسن ، رواق عربي ، كتاب غير دوري يصدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، العدد : 68، القاهرة ، مصر،[2014 م].

المواقع الإلكترونيَّة :

18 - موقع البيان : مورفي ، (دوايت -) : موضوع : **خطاب الكراهية** ، إعداد : فاتن صبح .
(https://www.albayan.ae/one-world/overseas/2017-04-16-1.2916746) ،
بتاريخ : 16 آبريل 2017 م .

19 - كراجة ، (سائد -) : موضوع : **خطاب الكراهيَّة وضبط المصطلح** ، موقع " الغد " :
(www.alghad.com) ،
بتاريخ : 17 أكتوبر 2017 م .

20 - المالكي ، (حسن بن فرحان -) : **وُجود الله .. الأسئلة المباحة .. والأسئلة المحرَّمة** ، موقع المالكي: (www.almaliky.org) .

21 - قانون يهدف إلى القضاء على خطاب الكراهيَّة . على موقع " دليل " : (www.dalil.org)

22 - بن مالك ، (نور الدِّين -) : **التَّطرُّف وخطاب الكراهية في أوساط الشَّباب : جذور الأزمة وصيغ التَّجاوز** ، مؤمنون بلا حدود للدِّراسات والأبحاث ، (www.mominoun.com/articles/6430) .